منبر الرسول وتطور المنابر

المقصورة والمحراب المجوف

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية
ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

المنبر (١)

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يخطب وهو مستند الى جذع نخلة (٢) منبت في الارض ولكنه في سنة ٧ هجرية (٦٢٨/٩ م) كما روى الطبري او في سنة ٨ او ٩ هجرية كما روى آخرون اتخذ منبراً من خشب الاثل الذي كانت تنمو اشجاره بوادي الغابة (٣) ويقال ان الذي صنع هذا المنبر رومي يدعى باقوم او باقول (٤)

وكان هذا المنبر كرسيًّا ذا ثلاث درجات (٥) يجلس النبي على الدرجة الثالثة منهُ وهي العليا واضعاً قدميه على الدرجة الثانية . وكان ابو بكر الخليفة الاول يجلس على الدرجة الثانية ثم لما تولى عمر الخلافة صار يجلس على الدرجة الاولى واضعاً قدميه على الارض . وقد كان هذا المنبر الذي لصادفه

---

(١) رغب الينا اخواننا في ان نردف ابحاث جناب الكبتن كرسويل التي نترجمها عنه ببعض النصوص العربية من المصادر المعترف بها عند المسلمين . فقبولا على رغبتهم قد أضفنا الى هذا البحث بعض النصوص العربية التي وجدنا فائدة في اضافتها . وفي كثير من الاحيان وجدنا هذه النصوص مكررة في كثير من الكتب فآثرنا ان نثبت نصاً او نصين وان نشير الى البعض بذكر الكتاب ومؤلفه ورقم الصفحة والجزء وضربنا صفحاً عن الباقي (المعرب)

(٢) . . . عن ابن عمر « كان النبي (صلعم) يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه . . . الخ » صحيح البخاري طبع ١٣١٤ جزء ٤ ص ١٩٥

. . . وعن جابر بن عبد الله قال « كان النبي (صلعم) يخطب الى جذع قبل ان يتخذ المنبر . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء اول ص ٢٤٩ وايضا سنن الدارمي جزء اول ص ٣٦٧

. . . وعن جابر بن عبد الله قال « كان جذع يقوم اليه النبي (صلعم) فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل اصوات العشار . . . الخ » صحيح البخاري جزء ٣ ص ٩ (المعرب)

(٣) . . . عن سهل بن سعد قال « كان من أثل الغابة بني منبر رسول الله صلعم » مسند احمد بن حنبل جزء خامس ص ٣٣٥ (المعرب)

(٤) يؤكد آخرون ان هذا الرومي هو الذي وضع للكعبة سقفاً عند ما أعادت قريش بناءها وانه لم يصنع المنبر وانما صنعه نجار آخر من المدينة

(٥) . . . عن سهل بن سعد انه سئل عن المنبر من أي عود هو ؟ قال

« أما والله اني لاعرف من عمله واي يوم صنع واي يوم وضع ورأيت النبي (صلعم) يوم جلس عليه . ارسل النبي (صلعم) الى امرأة لها غلام نجار فقال لها مري غلامك النجار ان يعمل لي اعواداً اجلس عليها اذا كلمت الناس فامرته للعمل الى الغابة فتقطع طرفاء فعمل المنبر ثلاث درجات فارسلت به الى النبي (صلعم) فوضع في موضعه هذا الذي ترون يجلس عليه اول يوم وضع . . . . الخ » مسند احمد بن حنبل جزء ٥ ص ٣٣٩ وانظر ايضاً صحيح البخاري جزء ١ ص ٩٣ وجزء ٢ ص ٩ وجزء ٣ ص ٦١ و ص ١٥٤ (المعرب)

الآن لاول مرة في الاسلام موضوع دراسة قام بها بكَر Becker نلخصها فيما يلي

اتخذ محمد المنبر حينما عظم شأنهُ وصار يستقبل الوفود من جميع الانحاء . وكذلك كان ابو بكر الخليفة الاول يأخذ البيعة في محفل عام وهو جالس على منبر . وهكذا كان يفعل الخلفاء من بعده عقب انتخابهم للخلافة مباشرة وولاة الاقاليم في البلاد التي فتحها الله على العرب فكان الوالي عقب توليه منصبه يعتلي المنبر . ويشيرون الى ذلك عادة بقولهم « واعتلى فلان المنبر في جهة كذا » . وكان هذا ضروريًا قبل مباشرته مهام عمله (٦)

ويستنتج «بكَر» من ذلك ان المنبر الذي رأيناه كان في اول امره مقعداً ذا درجتين ولم تكن له معنى او دلالة دينية في الايام الاولى للاسلام. فلم يكن سوى المكان الذي يجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الاولون عند عقدهم المجالس او في ايام الاعياد . فكان بذلك نوعاً من العرش يجلس عليه رئيس المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت

وكان المنبر معروفاً في العصر الجاهلي ولم يكن في اول امره سوى المقعد الذي يجلس عليه رؤساء العرب القدماء . فلما جاء الاسلام اتخذ مقعداً يجلس عليه الحكام المسلمون. ولعل هذا ناشيء الى حد ما من تأثرهم بفكرة اتخاذ العروش وهي فكرة شرقية قديمة . فكان يجلس عليه الرسول وخلفاؤه من بعده عند ما ينظرون في الشؤون العامة

وحينما نهى عمرو بن الخطاب عمر بن العاص عن اتخاذ منبر بالفسطاط كان ذلك لما للمنبر في تلك الايام من الدلالة القديمة اذ كان يعتبر العرش المقدس الذي يجلس عليه خليفة رسول الله

وكان المنبر والعصا هما علامتا الشرف اللتان يتميز بهما الوالي او القاضي في صدر الاسلام وربما كان ذلك متبعاً ايضاً في عصور الوثنية السابقة . ثم تطورت العصا حتى صارت صولجاناً وساعد على تطورها ما كان عند الفرس والروم من الصولج وخاصة بعد وفاة الرسول وفي عهد بني امية

ويرى «بكَر» ان تطور المقعد الى منبر قد بدأ حينما أضيف الى المصلي ويعزي ذلك الى معاوية (٦٦١/٦٨٠م) او الى مروان واليه على المدينة . اما عن مصر التي لدينا الكثير من اخبارها وتاريخها فاننا نعلم ان جميع مساجدها في القرى قد اضيفت اليها المنابر في سنة ١٣٢ هجرية (٧٤٩/٥٠ م)(٧)

ومن ذلك يستنتج «بكَر» ان المقعد القديم قد تحول تحولاً تامًّا الى منبر وعم استعماله في المدة الواقعة بين حكم معاوية وسقوط الدولة الاموية ٧٥٠ م

---

(٦) يرى لامنس Lammens انه بعد الفتح كان للكوفة والبصرة وغيرها من مدن العراق منابرها . وكذلك كانت توجد المنابر في اجناد الشام . مثال ذلك انه بعد ان انشأ يزيد الاول جند قنسرين مباشرة سمعنا عن وجود منبر هناك . كما ان عمرو بن العاص كان قد اتخذ منبراً بالفسطاط عقب اتجه مصر ولكن عمر بن الخطاب نهاه عن اتخاذه وانكر عليه ذلك (٧) جاء بالمقريزي جزء ٤ ص ٨ ما يأتي : ولم يكن يخطب في القرى الا على العصا الى ان ولي عبد الملك بن مروان بن نصير اللخمي مصر من قبل مروان بن محمد فامر باتخاذ المنابر في القرى وذلك سنة ١٣٢ هـ (المترجم)

اصل كلمة منبر

اما عن اصل كلمة منبر فقد اوضح شوالي Schwally ونولدكه Nöldeke انها من اصل اثيوبي (حبشي) وهذا لا يدهشنا كثيراً لانهُ توجد الفاظ كثيرة في القرآن نفسه من اصل اثيوبي اضف الى ذلك ان بلالاً مولى رسول الله كان عبداً حبشياً وان ام سلمه احدى زوجات النبي كانت ممن هاجروا الى الحبشة قبل هجرة الرسول الى يثرب ببضع سنين وان اهل مكة كانت لهم علاقات تجارية دائمة مع الحبشة وميناؤها مصوع التي كان الوصول اليها بحراً امراً ميسوراً

تطور المنبر

كان عمرو بن العاص قد اتخذ منبراً فكتب اليهِ عمر بن الخطاب رسالة شديدة اللهجة ينهاه فيها عن اتخاذ المنبر ويعزم عليهِ في كسره[٨] وقد جاء بها (اما يحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك) فكسره عمرو وقد سبق ان اشرنا الى هذه الحادثة[٩]. وفي خلافة عثمان بن عفان ظهر المنبر ثانية في مصر وقد روى ابن دقاق والمقريزي وأبو المحاسن ان زكريا بن مرقنى (او مرقنا) ملك النوبة المسيحي اهدى منبراً الى عبد الله بن سعد بن ابي السرح والي مصر من سنة ٢٤ — ٣٦ هـ (٦٤٤ الى ٦٥٦ م) وبعث معهُ نجاراً حتى ركبه بقطر من اهل دندرة وبقي هذا المنبر في مسجد عمرو حتى ازاله قرة بن شريك ونصب منبراً جديداً سواه[١٠]. ويقول ابن دقاق والمقريزي وابو المحاسن انهناك رواية اخرى بأن المنبر الذي ازاله قرة لم يكن قديماً وانهُ منبر عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ / ٧٠٥ م) ويضيفون الى ذلك عبارة هامة هي ان هذا المنبر حمل اليهِ من بعض كنائس مصر[١١]

وهذا يدلنا على ان الشكل الذي كان عليهِ المنبر في المساجد الاسلامية مستمد من المنبر المسيحي ويؤيد ذلك المنبر ذو الست الدرجات الذي عثر عليهِ كويبل Quibell في سقارة وهو في رأي كويبل النموذج الذي صنع على مثاله المنبر الاسلامي. وبناء على ذلك فنحن نرجح ان المنبر في الاسلام قد اتخذ الشكل الذي هو عليهِ (عدا منبر محمد) من منبر الكنيسة المسيحية الشرقية

المقصورة

يقول ابن خلدون في مقدمته ص ٢٣٤: «فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحوزه وما يليهِ فأول من[١٢] اتخذها معاوية ابن ابي سفيان حين طعنه

---

(٨) مقريزي جزء ٤ ص ٦ (٩) يضيف المغرب انه ورد بمقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ نص هذه الرسالة كما يلي (اما بعد فقد بلغني انك اتخذت منبراً ترق به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك لعزمت عليك الا ما كسرته) (١٠) مقريزي جزء ٤ ص ٨

(١١) نصب المنبر الجديد سنة ٩٤ هجرية وقد اشار الى ذلك السيوطي في كتابه حسن المحاضرة جزء ٢ ص ١٣٤

(١٢) جاء بكتاب خطط المقريزي جزء ٤ ص ٧ ما يأتي: ذكر عمر بن شبة في تاريخ المدينة ان اول من عمل مقصورة بلبن عثمان بن عفان وكانت فيها كوى تنظر الناس منها الى الامام . . . . الخ» وعلى ذلك فقد يكون عثمان هو اول من اتخذ المقصورة وليس معاوية بن ابي سفيان ولا مروان بن الحكم

الخارجي والقصة معروفة . او قيل اول من اتخذها مروان بن الحكم[١٣] (٦٨٣ م) حين طعنه الخارجي ثم اتخذها الخلفاء من بعدهم وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة . وانما هي حدثت عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن احوال الابهة كلها . وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف . واما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ونحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظها من الترف وجاء ابو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده » .

هذا هو التفسير المقبول عادة لاتخاذ المقاصير ولكن لامنس Lammens يعارضه وهو يرى ان المقصورة كانت في مبدإ امرها غرفة خاصة بالحاكم في مسجد الجماعة يقصد اليها للمشاورة او للراحة بين اوقات الصلوات وان ما قيل من انها اتخذت رغبة الخلفاء في العزلة والبعد عن العامة او على سبيل الحيطة لسلامتهم الشخصية فكل هذه ليست من الاسباب المقبولة في نظره

اولاً — لان الخليفة بمكانه على المنبر كان مميزاً تمييزاً كافياً عن العامة وجمهور المصلين

ثانياً — لان الامويين كان لهم حرسهم الخاص في المسجد

وقد اوضح ايضاً ان سنة ٤٤ هـ (٦٦٤/م) التي يروي اليعقوبي انه اتخذت فيها المقصورة سابقة في تاريخها لمحاولة الخوارج اغتيال معاوية ولذلك لايكون تفسير ابن خلدون في نظره تفسيراً مقبولاً . هذا سلمنا بقول لامنس هذا ، فانه مع ذلك تبقى امامنا تلك الحقيقة التاريخية الثابتة وهي ان ثلاثة من الخلفاء الراشدين الاربعة قد قتلوا ، وان اثنان منهما كان قتلهما بالمسجد . وعلى ذلك فقد كان لدى معاوية من الاسباب مايسوغ اتخاذه الحيطة وانشاء المقصورة بالمسجد . اما عن قول لامنس انها كانت غرفة خاصة ، فليس بين المقصورات الآن ما ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي ، لانها كانت جميعاً حتى النصف الاول من القرن الحادي عشر عبارة عن حاجز مكشوف من المشربيات كما في القيروان . وكذلك كانت المقصورة التي بالقرطبة مكشوفة وكانت تتكون من اعمدة تعلوها حجارة منقوشة بلغت الغاية في جمالها وروعتها

المحراب المجوف

اعادة بناء مسجد المدينة سنة ٨٨ — ٩٠ هجرية و٧٠٧ — ٩ م

يقول البلاذري [١٤] « كتب الخليفة الوليد الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم

(١٣) جاء بكتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢ عند كلامه عن مسجد المدينة ما يأتي : « وكان اول من اتخذ فيه (مسجد المدينة) المقصورة مروان بن الحكم بن امية بناها بحجارة منقوشة . . . — الخ المغرب »

(١٤) البلاذري ص ١٢ وما بعدها (كتاب فتوح البلدان) (المغرب)

المسجد وبنائه وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من اهل الشام ومصر فبناه وزاد فيه وولى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك سنة ٨٧ ويقال سنة ٨٨»

وروى اليعقوبي ان الوليد امر عمر بن عبد العزيز ان يهدم المسجد فهدمه وهدم كذلك حجرات زوجات النبي ووسع المسجد باضافة ارض هذه الحجرات اليه . وان امبراطور الروم ارسل مائة الف مثقال من الذهب واربعين حملاً من الفسيفساء وانه فرغ من بناء المسجد سنة ٩٠ هجرية

وروى السمهودي (١٤٨٨) نقلاً عن الواقدي المتوفى (٨٢٣) ما يأتي : —

« عن عبد الله بن يزيد قال : بنى القبط مقدم المسجد وبنى الروم جوانبه ومؤخره »

ذكرنا هذه الروايات لما لها من المكانة في تاريخ بناء هذا المسجد واشارتها الى العمال والصناع الذين اشتركوا في بنائه والجزء الذي بنته كل طائفة منهم . ونتقدم بعد ذلك لمعالجة موضوع المحراب المجوّف . فقد استحدث هذا النوع من المحاريب لاول مرة في المساجد الاسلامية في مسجد المدينة في عهد عمر بن عبد العزيز ، وقد روى ابن دقاق والمقريزي[١٥] نقلاً عن الواقدي « ان اول من احدث المحراب المجوّف هو عمر بن عبد العزيز حين اعاد بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم »

وهذه العبارة مع شيوعها وكثرة اقتباسها والاستشهاد بها فمع الاسف فان النص الذي يشير اليه المقريزي ليس هو النص الذي يعزى اليوم الى الواقدي ولذلك لا يمكننا ان نجزم بصحتها . ولكن نظراً لاهمية الموضوع الذي نحن بصدده فانا نميل الى الاخذ بها لورودها في كتاب ابن بطوطه (١٣٢٦) وفي الترجمة الفرنسية لكتاب المرتضى[١٦] الذي كتبه مؤلفه بعد وفاة السلطان الكامل بقليل اي حوالي ١٢٤٠ م . على اننا يمكننا ان نرجع الى مؤلفات ابعد عهداً من هذه في القرن الثاني عشر فقد نقل ابن عساكر المتوفي سنة ١٣٦٢ عن ابن عساكر المتوفي ١١٧٦ م انهُ بعد ان فتح خالد بن الوليد دمشق صلّى فيما يعرف الآن بالمسجد الاموي بدمشق وان اصحاب الرسول كانوا يصلون في المكان الذي يعرف بمحراب الصحابة وان هذا المحراب لم يكن مجوّفاً

وهذا يدل على ان المحاريب المجوفة لم تكن معروفة عند ما فتح المسلمون دمشق

فلما بنى المسجد الاموي بدمشق في عهد الوليد بن عبد الملك جعلت به المحاريب المجوفة وفي هذا المسجد الآن اربعة محاريب مجوفة يعرف احدها وهو الواقع بالنصف الشرقي من الحائط الجنوبي باسم محراب الصحابة تيمناً بذلك الاسم القديم الذي كان يطلق على محراب الصحابة عند فتح العرب دمشق

---

(١٥) خطط المقريزي ص ٥ جزء ٤ وحسن المحاضرة للسيوطي ص ١٣٤ جزء ثان

(١٦) يشير المرتضى الى ذلك بقوله : ان عمر بن عبد العزيز هو اول من احدث المحراب المجوف ولكنه لا يذكر المكان الذي احدثه فيه اذا كان بالمدينة او غيرها . ويلاحظ ان كتاب المرتضى هذا قد ضاع ولا يوجد الآن الا ترجمته الفرنسية التي ترجمها فانيه Vattier من نسخة مخطوطة كانت محفوظة بمكتبة الكردينال مازارين ونشرت بباريس سنة ١٦٦٦ (المعرب)

محراب جامع عمرو

ولما هدم قرة بن شريك (٩٢ — ٩٣ هـ) جامع عمرو بالفسطاط واعاد بناءه ووسعه جعل به محراباً عجوفاً كان يعرف بمحراب عمرو ولو انه لم يكن من عمله (لانه كان في سمت محراب المسجد القديم الذي بناه عمرو) . « وكانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة وهي اربعة اثنان منها في مقابلة اثنين وكان قرة اذهب رؤوسها [١٧] » لتكون دلالة على موضع المحراب القديم

ومن ذلك يتضح ان المحراب المجوف لم يكن معروفاً بالمساجد الاسلامية بمصر قبل قرة بن شريك

اصل المحراب المجوف

ان تلك العبارة التي يرويها السمهودي نقلاً عن الواقدي واشرنا اليها من قبل تعتبر في نظرنا ذات شأن اساسي لحل هذه المسألة لان وقوع المحراب في الجزء الذي قام ببنائه الاقباط بمسجد المدينة يحملنا على الاعتقاد انهُ من اصل قبطي مسيحي وهذه النظرية التي تقررها يسلم بها كثير من الكتّاب والباحثين وقد نقل لامنس Lammens عبارة هامة عن مؤلف للسيوطي ملخصها انهُ في اوائل القرن الثاني الهجري كانت الصلاة في المحراب المجوف محرمة عملاً بالاحاديث والسنة « لانهُ من شأن الكنائس » وان اتخاذه في المساجد هو من علامات اقتراب الساعة . وقد اشار « بكر » Becker الى مؤلف آخر [١٨] من مؤلفي القرن الرابع عشر كان يقول ان المحراب هو اقل اجزاء المسجد قداسة . وكان ينهي الامام عن الصلاة فيهِ . والجزء الوحيد المجوّف في الكنيسة القبطية هو الهيكل . فاذا اخذنا قليلاً من الامثلة القديمة لذلك وليكن مثلاً هيكل دير الانبا ارميا Apa Jeramias بسقارة فان الشبه بينه وبين المحراب القديم واضح جداً حتى اننا لا نتردد في قبول ما رواه هذان المؤلفان المسلمان اللذان اشرنا اليهما من قبل . ويتضح من ذلك ان المحراب المجوّف قد استمدَّ من اصل مسيحي واتخذ في المساجد الاسلامية مع بعض الكراهة وعدم الرضى من المسلمين

اصل كلمة محراب

وردت هذه الكلمة في أشعار العرب قديماً غير انها لم يكن لها معنى ديني في تلك الايام بل كانت تدل على اشياء دنيوية . ويرى نولدك Nöldeke انها كانت تعني بناء الملك او الامير

وقد حاول رودوكونا كيس Rhodokonakis في تعليقه على كتاب نولدك ان يحدد معنى هذه الكلمة وان يوضح الجزء الذي يطلق عليهِ هذا الاسم من بناء الملك او الامير فذكر انهُ هو المكان الذي يخصص لوضع العرش فيهِ (كما في قصير عمرة مثلاً)

فاذا كان هذا صحيحاً سهل علينا ان نعرف لماذا اطلقت هذه الكلمة على المحراب المجوّف الذي انشأه الاقباط الذين كانوا يشتغلون بمسجد المدينة على مثال هيكل كنائسهم !!

---

(١٧) مقريزي جزء رابع ص ٩ (١٨) هذا المؤلف هو ابن الحاج وكتابه يسمى المدخل وقد توفي سنة ١٣٣٧ م (كما اخبرني بذلك جناب المسيو فيت)